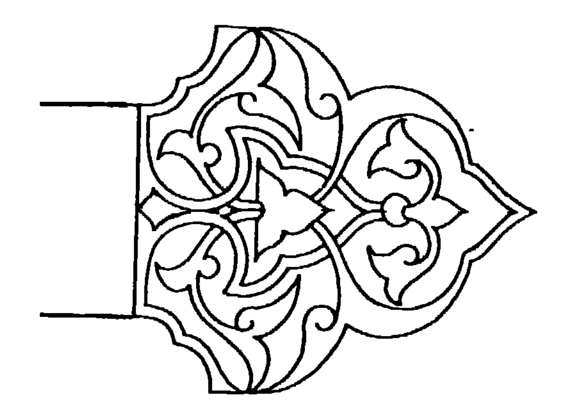


الذخائر ٦٨

الهوامل والشوامل

لأبي حيان التوحيدي ومسكويه

تقديم

أ.د صلاح رسلان

نشره

أحمد أمين

السيد أحمد صقر

الهيئة العامة لقصور الثقافة

الذخائر

المراسلات باسم مدير التحرير على العنوان التالى
١٦أ ش أمين سامى - قصر العينى - القاهرة
رقم بريدى ١٢٥٦١

تعــريف

عزيزى القارىء.. هذه حلقة جديدة من سلسلة «الذخائر»، وهى حلقة متميزة سواء بمادتها أو بظروف إخراجها في هذه الطبعة. هذه الحلقة هى كتاب (الهوامل والشوامل) الذى اجتمع فيه، وله، ما قلّ أن يجتمع لكتاب آخر.

أمّا ما اجتمع فيه فهو كونه حصيلة تلاقح فكرى، وربما تجاذب، بين اثنين من كبار المفكرين عبر تاريخ التراث العربى الإسلامى هما : (أبو حيان التوحيدى ت ٤١٤هـ)، (وأبو على مسكويه ت ٤٢١هـ)، ومن هنا جاء طابعه المميز، ففضلا عن طرافة موضوعات الحديث وثرائها، وعمق الفكرة ووضوح العبارة وسلاستها.. يطالعنا هذا النسق الخاص فى التأليف الذى قُدمت عبره أفكار المؤلفين، أعنى نسق السؤال والجواب، مما يجعل قارئه على ذكر دائما من موضوع الحديث فى كل موضع من مواضع الكتاب من جهة، ويُشعره، من جهة ثانية، بأهمية هذه الموضوعات التى شغلت (أبا حيّان) فجعل منها محاور لأسئلته، واحتشد لها (مسكويه) فاتخذ منها مقاصد لإجاباته.

وأمّا ما اجتمع لهذا الكتاب فهو هذه النخبة الفذة من رجال العلم سواء من حمل عبء تحقيقه وإخراجه للناس فى طبعته الأولى، ومن تفضل بكتابة مقدمته وتعريف القراء به فى هذه الطبعة.

لقد صدر الكتاب في أول الخمسينيات (١٩٥١م) عن لجنة التأليف والترجمة والنشر بتحقيق كل من المرحوم الأستاذ أحمد أمين والمرحوم الأستاذ أحمد صقر. وليس جديداً على القارئ أن الأستاذ أحمد أمين (١٨٨٦-١٩٥٤م) كان واحداً من الرواد فى حياتنا الجامعية ، كما أنه واحد من أعلام نهضتنا الأدبية والفكرية الحديثة فى مصر والعالم العربى، وذلك بما قدم من مؤلفات وتحقيقات وترجمات، نذكر منها- فى مجال التأليف- فجر الإسلام، وضحى الإسلام، وظهر الإسلام، والنقد الأدبى. كما نذكر - فى مجال التحقيق- هذا الكتاب الذى بين أيدينا وكتاب شرح الحماسة للمرزوقى. كما شارك فى ترجمة العديد من الأعمال الفكرية الكبرى نذكر منها : قصة الأدب فى العالم، وقصة الفلسفة اليونانية.

أما المرحوم الأستاذ السيد أحمد صقر (١٩١٥-١٩٨٩م) فهو أحد ثقات المحققين الذين أثروا المكتبة العربية الإسلامية بما أخرجوا من كنوز التراث. ومن أبرز تحقيقاته : كتاب تأويل مشكل القرآن، وكتاب تفسير غريب القرآن، وكلاهما لابن قتيبة، وكتاب الموازنة بين أبى تمام والبحترى للآمدى، وكتاب إعجاز القرآن للباقلانى، وقد جمع - رحمه الله - إلى التحقيق نقد تحقيقات الآخرين وتقويمها، ومن نماذج هذا النقد ما قدمه من ملاحظات على تحقيق المرحوم الأستاذ أحمد محمد شاكر لكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة.

أما مقدم هذه الطبعة الأستاذ الدكتور صلاح رسلان فهو أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية الآداب جامعة القاهرة، وقد سبق أن شغل منصب عميد كلية الآداب - جامعة القاهرة فرع الخرطوم، ومنصب رئيس قسم الفلسفة بكلية الآداب- جامعة القاهرة. ومن أعماله المنشورة : القيم فى الإسلام بين الذاتية والموضوعية، القرآن الحكيم، العلم فى منظوره الإسلامى، الفكر السياسى عند الماوردى، الخلاق والسياسية عند ابن حزم، السياسة والاقتصاد عند ابن خلدون، كونفوشيوس رائد الفكر الإنسانى، إلى جانب عدد من الأبحاث التى نشرت فى المجلات العلمية.

عزيزى القارئ.. ذلك ما اجتمع فى كتاب (الهوامل والشوامل) وما اجتمع له، فى تأليفه وتحقيقه ثم إعادة تقديمه فى سلسلة الذخائر، وإذا كان اسمى قد وُضع ضمن هيئة تحرير السلسلة فإنما جاء ذلك وفقا لمقتضيات النظام الرسمى - الشكلى - أما دورى الحقيقى - كما أراه وأحرص عليه- فهو الوفاء بحق الصداقة بينى وبين الأخ العزيز الدكتور (محمود فهمى حجازى) رئيس التحرير -أثناء وجوده خارج مصر - فى رعاية هذه السلسلة - سلسلة الذخائر- التى نعتز بها جميعا، والتى نقدم لك عزيزى القارئ إحدى دررها الثمينة.. كتاب الهوامل والشوامل.

عبد الحكيم راضى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الإطار الحضاري لعصر التوحيدي:

التوحيدى هو على بن محمد بن العباس المعروف.بأبى حيان التوحيدى، مفكر إسلامى كبير، وأديب فذ، ومثقف ملم بمعارف عصره من نحو ولغة وشعر وأدب وفقه وفلسفة وعلم كلام وسياسة وفلك وهندسة ورياضيات. وقد وصفه لنا ياقوت فى معجم الأدباء فقال إنه «فيلسوف الأدباء، وأديب الفلاسفة، ومحقق المتكلمين، ومتكلم المحققين، وإمام البلغاء... فرد الدنيا الذى لانظير له ذكاء وفطنة، وفصاحة ومكنة...»[١].

ولد التوحيدى فى بغداد حوالى سنة ٣١٠ أو ٣١١ هجرية (على وجه التقريب) من أبوين فقيرين، إذ كان أبوه أو أحد أجداده تاجراً يبيع نوعاً من التمر يقال له التوحيد، ويرجع البعض الآخر لقب التوحيدى إلى التوحيد يقول ابن حجر العسقلانى: «يحتمل أن تكون نسبة هذا اللقب إلى التوحيد»[٢].

ويرى الذهبى أن التوحيدى هو الذى نسب نفسه إلى التوحيد، مثلما سمى ابن تومرت أتباعه بالموحدين، وكما يسمى صوفية الفلاسفة أنفسهم بأهل الوحدة والاتحادية[٣].

كان القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) الذى عاش فيه التوحيدى من سنة ٣١٠ هـ إلى سنة ٤١٤هـ قرناً مليئاً بالتناقضات التى تعيننا على فهم

---

(١) ياقوت الرومى: معجم الأدباء، طبعة الدكتور فريد الرفاعى، القاهرة، (١٩٣٨، ص٥-٦ جـ١٥) .

(٢) ابن حجر العسقلانى: لسان الميزان، مطبعة دائرة المعارف النظامية، حيدرآباد (جـ٦ ص٣٦١).

(٣) الذهبى: سير أعلام النبلاء (١٧/١٢١) .

طريقته في التفكير، وأسلوب معاشه، وسماته الشخصية، فالتوحيدى عاش فى بيئة سياسية حافلة بالفوضى وذيوع الفتنة والاضطراب، وتفشى الإرهاب السياسى والاضطهاد المذهبى، وقد شهد هذا العصر الذى ولد التوحيدى ونشأ فيه بداية التدهور السياسى للخلافة العباسية وتفكك الأمصار، وتغلغل الأعاجم فى جسم الدولة وتسلطهم على الأمور، وازدياد تفاقم الصراعات الطبقية والعرقية، كما عاصر التوحيدى فساد الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى فترة حكم بنى بويه التى أدت فى النهاية إلى سوء توزيع الثروة العامة وانقسام المجتمع إلى طبقتين: طبقة الفقراء التى تعيش فى الحرمان والبؤس والشقاء والغبن. وطبقة الرؤساء والأغنياء التى عكفت على الترف والبذخ واللهو، وقد انعكست آثار هذا العهد القاسى المظلم، بما حفل به من فساد سياسى واجتماعى واقتصادى على أسلوب حياة التوحيدى، مما دفعه دفعاً إلى محاولة الاتصال بالأمراء والوزراء والوجهاء طلباً للرزق وسعياً وراء المال والشهرة، وشارك التوحيدى فى هذا الأسلوب من أساليب السلوك معظم المثقفين فى تلك الأونة، وهو مايؤكد أن مافعله التوحيدى لم يكن بالشىء المستغرب فى ذلك العصر، لأنه فى نهاية الأمر «إنسان من دم ولحم، تؤرقه مشكلات الرزق والمعاش، وتقض مضجعه مشاغل الحياة، ويقلق باله مايقع عليه من ظلم، ويثير حفيظته ماينزل بساحته من آلام بسبب قسوة المجتمع»(١).

وقد سرت فى أفراد المجتمع أيضاً نتيجة فساد الحياة الاقتصادية والاجتماعية روح الكآبة وذم الزمان و أهله، والتمرد على الظلم، وشيوع روح التواكل وهو ماعبر عنه أدباء هذا العصر خاصة التوحيدى .

---

(١) د. زكريا إبراهيم، أبو حيان التوحيدى، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة، ط٢، ١٩٧٤، ص٨ .

في مقابل هذا الانهيار والأفول السياسي عاصر التوحيدي في القرن الرابع الهجري رقى الحياة العقلية وتقدم العلوم والفنون، وتألق العمارة والإدارة والتجارة، ووفرة المجالس العلمية والثقافية، وازدانت بغداد عاصمة الدولة بثمرات تلك الحضارة المادية والمعنوية، وازدحمت بالكثير من نوابغ الأدب والفلسفة وعلوم الدين من أقطار دولة الإسلام الذين أضاءوا الطريق للأجيال من بعدهم، ومن هؤلاء ابن سينا، والخيام، والمعرى والباقلاني والبيهقي والقشيري ومسكويه والاسفراييني والمتنبي وعثمان بن جني النحوي الموصلي والشريف الرضي ومهيار الديلمي وابن العميد الكاتب والصاحب بن عباد وابن النديم، وغير هؤلاء من أعلام القرن الرابع الهجري، وظهر أثر كل هذا في كتابات أبي حيان التي عكست صور تلك الحياة الثقافية والتألق الحضاري في شتى جوانب الدولة الإسلامية، حتى عده البعض المرآة الناصعة لثقافة القرن الرابع الهجري، وسجلاً وعنواناً دقيقاً لثقافة قرن بأكمله في تاريخ التراث العربي .

أساتذته وموسوعيته:

وقد دفع «حب التنويع» التوحيدي إلى دراسة مختلف العلوم والفنون مثل الفقه والحديث والفلسفة والمنطق والكلام والتوحيد والتصوف، ومحاولة الأخذ من كل علم منها بطرف، إذ كان بحق «شخصية فلسفية طلعة تستخلص الأسئلة من كل مايقع أمامها، سواء كانت المسائل خلقية أو اجتماعية أو لغوية أو اقتصادية أو نفسية..»(١).

فإذا أضفنا إلى هذا أن العلماء الذين اتصل بهم، وتلقى العلم على أيديهم كانوا من العلماء الموسوعيين ذوي الثقافات المتعددة، أدركنا سر تلك

---

(١) الهوامل والشوامل: للتوحيدي ومسكويه، تحقيق ونشر أحمد أمين والسيد أحمد صقر، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥١، مقدمة أحمد أمين ص «د» .

الروح الموسوعية التى تميز بها التوحيدى ومكنته من المزج بين كل تلك الثقافات.

وكان ممن اتصل بهم وتلقى العلم على أيديهم من العلماء أبو سليمان السجستانى المنطقى، والفيلسوف يحيى بن عدى، والشيخ أبو سعيد السيرافى عالم النحو والكلام، والعالم على بن عيسى الرمانى، وعالم الفقه المرورذى. فأبو سليمان أحمد بن طاه بن بهرام السجستانى كان فى مقدمة الأساتذة العلماء الذين تتلمذ على أيديهم التوحيدى، وهو من كبار الفلاسفة وعلماء المنطق واللغة وصاحب أنظار فى الأدب والشعر. وكان التوحيدى يكثر من ملازمته حتى عده القفطى «أحد أصحابه المعتصمين به» ولاأدل على ذلك من أن كتاب التوحيدى المسمى باسم «المقابسات» يشتمل الجزء الأكبر منه على أحاديث ومناقشات جدلية وفلسفية لأبى سليمان وتلاميذه .

أما الفيلسوف النصرانى أبو زكريا يحيى بن عدى (ت ٣٦٠هـ) فهو من أشهر تلامذة الفيلسوف أبى نصر الفارابى وبشر بن متى. وكان متضلعاً فى علم المنطق الذى يعتمد عليه فى إثبات الحقائق والعقائد. ويحفل كتاب المقابسات بالكثير من آراء يحيى بن عدى فى الكون والفساد والحركة والزمان والعلة والمعلول، والصورة والمادة ... إلخ ..

وأما أبو سعيد السيرافى، (٢٨٤ - ٣٦٨هـ) فهو أستاذه الأكبر الذى أخذ عنه علوم النحو والكلام والفقه والشريعة. وقد أثبت التوحيدى فى «الإمتاع والمؤانسة» تلك المناظرة الشهيرة التى جرت بين السيرافى ومتى بن يونس القنائى عن المفاضلة بين النحو العربى، والمنطق اليونانى، وكان السيرافى متمتعاً بسعة الاطلاع والورع والصلاح والتقوى مما دفع المحيطين به إلى مخاطبته بشيخ الإسلام والإمام الجليل .

وهناك أستاذ آخر تتلمذ عليه التوحيدى وهو على بن عيسى الرمانى (٢٧٦ - ٣٨٤هـ) وكان عالماً متبحراً فى مختلف العلوم من نحو ومنطق ولغة وأدب وكلام وفقه وحديث .. إلخ، وكان له أثر كبير فى تنشئة التوحيدى من الناحية اللغوية والنحوية والمنطقية بل العقلية بصفة عامة .

ودرس التوحيدى الفقه الشافعى على القاضى المتبحر فى أصول الشريعة وفروعها أبى حامد المرورذى (المتوفى سنة ٣٦٢هـ) والذى عده التوحيدى بحق بحراً يتدفق حفظاً للسير واستنباطاً للمعانى، وثباتاً على الجدل، ويرجع شغف التوحيدى بتعريف الألفاظ وتحديد معانى الكلمات إلى أبى حامد المرورذى كما يشير إلى ذلك فى كتاب «البصائر والذخائر» .

وهكذا فقد تتلمذ التوحيدى واتصلت أسبابه بأكبر علماء عصره. فتلقن أصول العلوم اللغوية والفلسفية والشرعية على يد أعظم مفكرى زمانه مما أكسبه ثقافة موسوعية واضحة. أضف إلى ماسبق احترافه مهنة الوراقة التى مكنته من الاطلاع على عيون التراث وأمهات الكتب العربية إلى جانب عدد آخر من العلماء ممن قرأ عليهم واتصل بهم أمثال أبى محمد جعفر الخلدى من كبار المتصوفة، وابن سمعون (٣٠٠ - ٣٨٧هـ) وكان حكيماً واعظاً، وأبى بكر القومسى المتفلسف، وأبى الحسن العامرى الفيلسوف الإسلامى، وابن النفيس الرياضى .

شخصيته:

كانت شخصية التوحيدى شخصية قلقة حائرة معتلة الطبع ذات مزاج سوداوى، قائمة على الازدواج والتناقض والتمزق الداخلى، لم يعهده الناس إلا شاكياً باكياً مفرطاً فى السخط وذم الناس، تشكى كثيراً فى أكثر مؤلفاته مثل: الإمتاع والمؤانسة، والصداقة والصديق، والمقابسات، والبصائر والذخائر،

ومثالب الوزيرين، إذ وجد من هم أقل منه موهبة وذكاء يرتفعون إلى أعلى مراتب الرياسة والشرف فى الدنيا ، بينما لم ينل هو إلا البؤس والحرمان، لقد شكا التوحيدى من الفقر الذى يعد القبر خيراً منه، كذلك شكا من ذوى اليسار والنعم، وازدادت كراهيته للناس حتى أصبحوا فى نظره سباع ضارية وكلاب عاوية، وعقارب لساعة، وأفاع نهاشة.

ولكنه شكا أيضاً من عنف الحياة الإنسانية وقسوتها وضعف الإنسان وتناقض ذاته البشرية، كما شكا من هول الموت، وكان من نتائج مرارته وحقده على الأحياء، ونفوره من المجتمع، أن بعدت الشقة بينه و بين معاصريه، وتعذر التفاهم بينه وبينهم .

وتفسر لنا شخصية التوحيدى القلقة التى لاتستقر على حال - بوضوح - سر التناقض فى حياته وكتاباته، ففى الوقت الذى يتحدث فيه عن حلاوة الدنيا وعذوبتها ينادى بالزهد والقناعة والتنسك، وإذا كان فى بعض كتاباته صريحاً عدوانياً أحياناً إلا أنه فى بعضها الآخر بدا مجاملاً إلى حد التذلل، وفى الوقت الذى نراه عابساً متشائماً مستسلماً لليأس، نراه فى ظروف أخرى ضاحكاً ساخراً مسترسلاً فى رواية النكات المجونية، وأبو حيان الذى يشير إلى فناء الدنيا ويحقر من شأنها ويعظم من شأن الآخرة هو أبو حيان الذى يرى أن الدنيا حلوة خضرة وعذبة نضرة، وأن العاجلة محبوبة، والرفاهية مطلوبة .

ولعلنا لانتجاوز الحقيقة إذا قلنا إن سر شعوره بالغربة والوحشة الهائلة فى الحياة إنما يرجع إلى ماعاناه من فقر ومرارة فيها ، وعجز عن تحقيق أمانيه، والفوز بالغنى والمجد والسعادة، وتظلمه المستمر وتمرده على ذاته، وتشكيه الدائم من الناس والحياة والزمان .

لاغرابة بعد ذلك أن يكون التوحيدى فيلسوفاً وعالماً، فناناً ومفكراً، وفقيهاً ومتصوفاً، أديباً ومنطقياً .

موقفه من علم الكلام والفلسفة والتصوف:

التوحيدى والكلام:

وصفه ياقوت فى «معجم الأدباء» بمحقق الكلام، ومتكلم المحققين، ونعته السبكى فى «طبقات الشافعية الكبرى» بالمتكلم الصوفى، وعلل ابن حجر تسميته بالتوحيدى بأن المعتزلة يسمون أنفسهم بأهل التوحيد .

ولكننا إذا تتبعنا كتب التوحيدى وجدنا أنه لم يكن ينتمى إلى طائفة علماء الكلام، بل كان كثير النعي عليهم، دائم الاستهزاء بهم، والحط من شأنهم ومهاجمة طريقتهم فى البحث والاستدلال، وقد شملت سخريته بهم ألفاظهم السخيفة الساقطة المنحطة، كما ورد من ذلك فى مؤلفاته: البصائر، والإمتاع والمؤانسة والمقابسات، ورسالة فى العلوم .

ويبدو أن السر فى حملته على علم الكلام، ومهاجمته طريقة المتكلمين، يرجع إلى مناصرته أهل الحديث، وميله إلى البساطة، والابتعاد عن السفسطة والشك والاختلاف والفرقة. أضف إلى ذلك انتسابه إلى مدرسة أستاذه أبى سليمان المنطقى، وهى مدرسة فلسفية ترى الفصل بين الفلسفة والدين، إذ إن لكل منهما مجاله الخاص فى النفس الإنسانية: فالدين وحى قائم علي القبول والتسليم وليس فيه «لمَ» و«كيف»، إلا بقدر مايؤكد أصله، وينفى عارض السوء عنه، والفلسفة تفكير بشرى مبنى على النظر، وفى ذلك يقول أبوسليمان:

«الفلسفة حق، لكنها ليست من الشريعة فى شىء، والشريعة حق لكنها ليست من الفلسفة فى شىء... وصاحب الشريعة مبعوث، وصاحب الفلسفة مبعوث إليه. وأحدهما مخصوص بالوحى، والآخر مخصوص ببحثه... وهذا يقول: أمرت وعلمت، وقيل لى وما أقول من تلقاء نفسى، وهذا يقول: رأيت

ونظرت واستحسنت واستقبحت...»[١] ولعل هذا يفسر لنا ثورة التوحيدى على كل من يقول بالجمع بين الفلسفة والدين مثل جماعة إخوان الصفا، وهو ماحاول البعض نسبته إليهم[٢]، لكن التوحيدى- فى بعض الآراء - كان يخفى ذلك.

ويورد التوحيدى فى المقابسات إجابة أستاذه أبى سليمان السجستانى المنطقى عن الفرق بين طريقة المتكلمين وطريقة الفلاسفة فيقول: .

«طريقتهم - يعنى المتكلمين- مؤسسة على مكايلة اللفظ باللفظ، وموازنة الشىء بالشىء إما بشهادة من العقل مدخولة، وإما بغير شهادة منه البتة، والاعتماد على الجدل، وعلى مايسبق إلى الحس، أو يحكم به العيان، أو على مايسنح به الخاطر المركب من الحس، والوهم والتخيل مع الإلف والعادة والمنشأ، وسائر الأعراض التى يطول إحصاؤها، ويشق الإتيان عليها.، وكل ذلك يتعلق بالمغالطة، والتدافع، وإسكات الخصم بما اتفق، وإتمام القول الذى لامحصول فيه، ولامرجوع له، مع بوادر لاتليق بالعلم، ومع سوء أدب كثير، وقلة تأله، وسوء ديانة، وفساد دخلة، ورفض الورع بجملته ...

والفلسفة محدودة بحدود ستة، كلها تدرك على أنها بحث عن جميع مافى العالم مما هو ظاهر للعين، وبطن للعقل، وماركب بينهما، ومائل إلى أحد طرفيهما.. من غير هوى يمال به على العقل، ولاإلف يفتقر معه إلى جناية التقليد، مع إحكام العقل الاختيارى وترتيب العقل الطبيعى... ومع أخلاق إلهية واختيارات علوية وسياسات عقلية...»[٣].

---

(١) التوحيدى: الإمتاع والمؤانسة ١٨/٢ .

(٢) د. زكى مبارك: النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى ١٤٣/٢ .

(٣) التوحيدى: المقابسات ط الرحمانية ١٩٢٩م. ص٢٢٣ .

ومما أثار التوحيدى على علماء الكلام مزجهم الفلسفة والمنطق بالدين وتعمقهم فى مباحث العقائد على أساس من الدليل العقلى، وهو يرى أن النظر فى الدين على هذا الأساس الكلامى لايورث فى النهاية إلا الشك والمرية، والظن، والاختلاف والفرقة، والحمية والعصبية كما ورد فى مقابساته، ومادام الدين مبنيّاً على الخشوع والتقوى، فإن المتكلمين - فى نظره - من أبعد الناس عنه، لأنهم يتكلمون بعقولهم فى المسائل، ويردّون الحجج، ثم لاترى عندهم خشوعاً، ولارقة، ولاتقوى ولادمعة .

لاغرابة بعد ذلك فى أن يهاجم التوحيدى علماء الكلام ويصفهم بأقذع الصفات ويوجه إليهم نقداً حاداً، فقد هاجم - على سبيل المثال - أحد كبارهم وهو الداركى، وهاجم أبا بكر الباقلانى (ت ٤٠٣هـ) الأشعرى صاحب إعجاز القرآن، كما وجه نقداً إلى علماء الكلام، من المعتزلة مثل أبى عيسى الوراق (ت ٢٤٧هـ) وعلى بن عيسى الرمانى. (ت ٣٨٤هـ) والعلاف (ت ٢٣٥هـ).

ولعل فى نقد التوحيدى اللاذع للمعتزلة ماينفى عنه صفة الاعتزال وأنه كان من المدافعين عنهم أو من أنصارهم، فهم عنده لايعرفون صناعة التعريف المنطقى، أى صناعة التحديد، وعملهم فيها أشبه مايكون بالهذيان، وهى «صناعة صعبة تحتاج إلى علم واسع بالمنطق ودرية مع ذلك كثيرة، وغاية ماعند هؤلاء القوم فى التحديد إبدال اسم مكان اسم، بل ربما كان اسم الشىء أوضح من الحد الذى يضعون...أما ماتكلفوه من الحدود، فهو بالهذيان أشبه...»(١)

وإذا كان التوحيدى قد ذكر فى بعض مصنفاته أفراداً من المعتزلة درس عليهم وتلقى العلم على أيديهم، فإنهم لم يسلموا من نقده الحاد، ومهاجمته لهم هم وسائر رجال الكلام أشعرية وإمامية، وماذلك إلا لأن طريقتهم لاتفضى بهم إلا إلى الشك والارتياب وانعدام الطمأنينة واليقين .

---

(١) التوحيدى ومسكويه: الهوامل والشوامل: ١٣٦ .

إن الدين الإسلامى كما يرى التوحيدى فى الجزء الثانى من كتابه «البصائر والذخائر» معقود بالتسليم، لكن ينبغى أن يكون التسليم والتفويض سابقين للنظر والجدل، والمراء والضلال، والحيرة فى تناقض الأقوال، لأن التلاعب بحجج الله، والاجتراء على عقول عباد الله، ليس من سنن أنبياء الله، ولامن آداب أولياء الله .

وقد أخطأ السنيور كارلونللينو حين وصف التوحيدى بأنه من علماء الكلام[١]، ومنشأ الخطأ هو ذهاب البعض إلى القول بأنه سمى التوحيدى لأنه كان من أهل التوحيد، ويظهر أن هذه التسمية قد جاءته من محاولاته توظيف كل علم لبلوغ التوحيد وهو مايكشف عنه قوله فى الإمتاع والمؤانسة :

«وأنا أعوذ بالله من صناعة لاتحقق التوحيد، ولاتدل على الواحد، ولاتدعو إلى عبادته». [٢]

التوحيدى والفلسفة :

اهتم التوحيدى بتمجيد الفلسفة التى عدها صناعة لابد أن تنتهى بصاحبها إلى التوحيد الصافى من الشوائب ومظاهر الشك والإلحاد التى وردت على ألسنة المتكلمين .

وموضوع الفلسفة هو البحث عن العالم بأسره بكل مااشتمل عليه من مخلوقات وكائنات وموجودات .

«إنها بحث عن جميع مافى العالم، مما ظهر للعين، وبطن للعقل، وماركب بينهما ... من غير هوى يمال به على العقل، ولاإلف يفتقر معه إلى جناية التقليد»[٣].

---

(١) تاريخ علم الفلك: حاشية ص٥٥ .

(٢) التوحيدى: الإمتاع ١٣٥/٣.

(٣) التوحيدى: المقابسات ص٢٢٣.

إن الفلسفة عنده، هى «علم العلوم وصناعة الصناعات، لاتعطيك فى موضع الشك اليقين، ولافى موضع الظن العلم، ولكنها تعطيك فى كل شئ ماهو خاصته وحقيقته إن شكًا فشكاً، وإن يقيناً فيقيناً»[١].

ومن هنا فإن التوحيد، كما يرى أبو حيان فى المقابسة رقم ٦٣، لم يصف فى الشريعة من شوائب الظنون وأمثلة الألفاظ، كما صفا فى الفلسفة .

وسبيل الوصول إلى الفلسفة هو السعى الحثيث، والجد فى الطلب، وذلك بالنظر إلى اشتمالها على أغراض سائر العلوم، ولاأدل على ذلك من تناول أغلب مؤلفاته لموضوعات فلسفية إلهية كانت أو طبيعية أو أخلاقية، وهى الموضوعات الثلاثة الكبرى التى ينشغل بها الوعى الإنسانى .

أما عن موقفه من العلاقة بين الفلسفة والشريعة فيرى أن «الفلسفة حق لكنها ليست من الشريعة فى شىء، والشريعة حق لكنها ليست من الفلسفة فى شىء، وعلى من يريد التفلسف أن يعرض بنظره عن الديانات، ومن يريد الدين فعليه أن يبتعد عن الفلسفة» ولكن عليه بعد ذلك أن يتحلى بهما متفرقين فى مكانين مختلفين، ويكون بالدين متقرباً إلى الله تعالى - على ماأوضحه صاحب الشريعة عن الله تعالى - ويكون بالحكمة (الفلسفة) متصفحاً لقدرة الله تعالى فى هذا العالم الجامع للزينة الباهرة لكل عين، المحيرة لكل عقل، ولايهدم أحدهما بالآخر... ولايعترض على مايبعد فى عقله ورأيه من الشريعة وبدائع النبوة بأحكام الفلسفة، فإن الفلسفة مأخوذة من العقل المقصور على الغاية، والديانة مأخوذة من الوحى الوارد من العلم بالقدرة.[٢]

فلا غنى للإنسان إذن - عند التوحيدى - عن الدين والفلسفة، وهو بهذا يحتفظ للفلسفة بمكان كبير فى فكره الإنسانى، مؤكداً أهمية الدور الذى تلعبه

---

(١) التوحيدى: المقابسات، المقابسة ٤١ ص٢٠٤ .

(٢) التوحيدى: الإمتاع والمؤانسة، ط١ بالقاهرة ١٩٤٢م جـ٢ ص١٨ - ١٩ .

فى حياة الإنسان الذى أولاه منزلة رفيعة فى جل مؤلفاته، وفى ذلك يخاطب التوحيدى الإنسان قائلاً: «فاسعد أيها الإنسان بما تسمع وتحس وتعقل، فقد أردت لحال نفيسة، ودعيت إلى غاية شريفة وهيئت لدرجة رفيعة، وحليت بحلية رائعة، وتوجت بكلمة جامعة، ونوديت من ناحية قريبة». (١)

لقد قام التوحيدى بدور مهم فى تاريخ الفكر الإسلامى إذ قرب أسلوبه الأدبى السلس البسيط الرائع الفلسفة من الجماهير، وأحالها إلى ثقافة شعبية ينهل عامة الناس من معينها شتى ألوان المعرفة، لهذا استحق أن يوصف بفيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة، كما ذهب إلى ذلك ياقوت الرومى، فى (معجم الأدباء) .

التوحيدى والتصوف:

انطبعت حياة التوحيدى وأغلب مؤلفاته بالطابع الروحى الصوفى، حتى لقد كان الزهد والتصوف أشهر ماعرف به من بين معارفه الأخرى، فلا عجب أن يصفه ياقوت فى (معجمه) بأنه شيخ الصوفية، وبأنه صوفى السمت والهيئة، وينعته السبكى فى (طبقات الشافعية) بالمتكلم الصوفى .

وقد كان يتزيا بزىّ الصوفية، وظل يحتفظ به إلى النهاية، ويأنس لأصحاب المرقعات، والتاسومات(٢). وأغلب الذين آخاهم فى شبابه كانوا من الزهاد والصوفية مثل ابن الجلاء الزاهد، وابن سمعون الصوفى.

ويحدثنا أبو حيان بأنه حج بيت الله الحرام، سعياً على أقدامه فى رفقة من إخوانه المريدين، وأنهم أوشكوا على الهلاك تعباً وسغباً لولا رعاية الله ولطفه بهم .

---

(١) التوحيدى: المقابسات، المقابسة رقم (١)، ص١١٩ .

(٢) المرقعة: من ملابس الصوفية، التاسومة، نوع من النعال البالية يلبسه الفقراء .

وقد تميز سلوكه - على وجه العموم - بطابع الزهد والتصوف ويظهر ذلك واضحاً فيما أقدم عليه من تخفّ واستتار وهجرة إلى شيراز التى كانت تعمر بالصوفية واتخاذها مقاماً له حتى دفن بها بجوار الصوفى ابن عفيف. كما يظهر ذلك واضحاً - أيضاً - فى إحراقه لمؤلفاته وثمرات عقله فى أواخر أيامه، اقتداء بمن سبقوه وصنعوا صنيعه من الزهاد مثل داود الطائى والدارانى، وسفيان الثورى .

وقد دفعت هذه النشأة الصوفية التوحيدى إلى الدفاع عن التصوف وتأليف مؤلفات قيمة فى هذا الفن منها :

١ - الرسالة فى أخبار الصوفية .

٢ - الرسالة الصوفية .

٣ - رياض العارفين .

٤ - الإشارات الإلهية .

٥ - كتاب الحج العقلى إذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعى . ألف سنة ٣٨٠هـ[١].

ولم يعرف للتوحيدى مذهب مستقل فى التصوف، أو إشادة بطريقة خاصة من طرق الصوفية أو نوع معين من أنواع التصوف، ويبدو أن تصوفه هو من نوع التصوف المعتدل المستند إلى تعاليم الكتاب والسنة والمنطبع بالطابع الأخلاقى. آية ذلك «جمعه - كما يقول محمد كرد على - بين مذهب أهل الصوفية، أمثال المحاسبى والتسترى، والجنيد والسرى السقطى وإبراهيم بن أدهم وغيرهم من النساك[٢] الذين وزنوا أقوالهم بميزان الشريعة .

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية: على بن محمد بن العباس التوحيدى .

(٢) محمد كرد على: أمراء البيان، ط: اللجنة، بالقاهرة جـ٢ ص٤٩٤ .

فالمقطوع به أن تصوف التوحيدى لم يكن من ذلك النوع الفلسفى الشطحى الحاد، الذى ينطلق فيه أصحابه من حال الفناء إلى إعلان الحلول أو الاتحاد، مما أثار عليهم فقهاء المسلمين. فتصوف التوحيدى - إذن - هو تصوف معتدل لايتعارض مع المبادئ الإسلامية، ولعل ذلك يدفعنا إلى القول بأن دعاوى القائلين بأن التوحيدى كان من أصحاب مذهب الإتحاد أو مذهب وحدة الوجود، تصبح دعاوى متهافتة لاأساس لها من الصحة أو اليقين .

وللزهد عند التوحيدى مفهوم خاص، فهو ليس اعتزالاً للحياة أو انقطاعاً عنها، بل هو معنى يتحقق به الإنسان، يدفعه إلى العمل فى الحياة - والانصراف إلى الجاد من أمورها، وكفالة الخير للجميع، يقول التوحيدى على لسان أستاذه المرورذى الزهد فى الدنيا لايصح: «لأن الإنسان خلق منها وعمرها وسكن فيها، فلا سبيل إلى انسلاخه منها، على مانرى جفاة الصوفية يقولون... وإنما أريد بالزهد القيام بالأمر والنهى علي قدر الطاقة، وكنه القوة مع التقلب بين الرجاء والخوف، وإصلاح القلب بحسن النية فى الخير، وبذل المجهود من الموجود لمن يحسن معه الجود». (١)

أما عن موضوع الألقاب والمخاطبات فيرى التوحيدى أن الأصل فى ذلك هو شعور الناس بالنقص، والعجز الغالب عليهم، فهم يريدون علاج ذلك عن طريق الألقاب ونفى الضعف الغالب عليهم بالتفخيم فى الخطاب، وفى ذلك يروى رأى أستاذه المرورذى فيقول: «وليس الطريق إلى ذلك هذا، بل الطريق إليه الأخذ بأخلاق من سلف من الحياء والكرم والدين والمروءة. وانظر إلى السلف الصالح كيف كانوا؟ هل خاطبوا رسول الله ﷺ إلا بيارسول الله؟ وبعد، فهل يخاطب ربنا إلا بالتاء والكاف، وهل سمعت عبداً لله أخلص دينه

---

(١) التوحيدى: البصائر والذخائر ط. اللجنة، بالقاهرة: ٢١٢ .

له قال: إن رأى ربنا فعل بعبده كذا كذا؟ وهل الخير كله إلا فيما خص الله به نبيه وأمته، وأشاع فيهم حكمته وبركته»[١].

دينه:

اختلف المؤرخون في دينه وعقيدته، فابن فارس في كتابه «الفريدة والخريدة» يقول عنه إنه كان قليل الدين والورع عن القذف والمجاهرة بالبهتان وإنه تعرض لأمور جسام من القدح في الشريعة والقول بالتعطيل.[٢]

وجاء ابن الجوزي (المتوفى سنة ٥٩٧هـ) في تاريخه فقال «زنادقة الإسلام ثلاثة: ابن الراوندي والتوحيدي وأبو العلاء (المعري). قال: وأشدهم على الإسلام أبو حيان لأنه مجمجم، ولم يصرح[٣].

ثم جاء الذهبي (ت ٧٤٨هـ) فتابعهما في هذا الاتهام، وزاد فقال: «إن أبا حيان كان عدو الله خبيثاً، سيئ الاعتقاد»[٤].

ولكن علماء آخرين على رأسهم ياقوت[٥] وابن النجار[٦] والسبكي[٧] شهدوا له بصحة الدين، وسلامة العقيدة، وأن مافي كتبه لايدل على زندقة أو إلحاد.

---

(١) التوحيدي: مثالب الوزيرين، تحقيق ونشر إبراهيم الكيلاني، دار الفكر العربي، بدمشق، ١٩٦١ ص١٩١- ١٩٢ .

(٢) السبكي طبقات الشافعية، ط. القاهرة، ٢/٤ .

(٣) المصدر السابق، والسيوطي، بغية الوعاة ٣٤٨ .

(٤) الذهبي: ميزان الاعتدال ٣٥٥/٣ والسبكي: طبقات الشافعية ٢/٤ .

(٥) انظر: معجم الأدباء ٥/١٥ .

(٦) السبكي: طبقات الشافعية ٢/٤.

(٧) .المصدر السابق .

ويرجع الأستاذ محمد كرد علي[١] أن للحسد والجهل مدخلاً كبيراً فى الطعن على التوحيدى .

لقد كان التوحيدى حنيفاً مسلماً، صوفياً يغار على دينه، ويقر بجلال القرآن وإعجازه ويمجد أحاديث رسول الله ﷺ ، ويدعو إلى الشقة فى الله وحده، وفى ذلك يقول أبو العباس أحمد بن أبى الخير زركوب شيرازى وهو من أعلام القرن السابع الهجرى:

التوحيدى هو «الإمام الموحد»، والعالم المتفرد، الجامع للمعارف والعلوم، لانظير له فى المكاشفات الإلهية، والبحث فى التوحيد.[٢]

ويبدو أن الذى دفع بعض مؤرخيه مثل الخوانسارى فى (روضات الجنات)، إلى اتهامه بالزندقة والإلحاد هو ماذكره هذا البعض من تأليف التوحيدى لكتاب يسمى: الحج العقلى إذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعى، يوحى عنوانه بالزندقة، التى أودت بحياة الحلاج الذى نادى بفكرة الحج العقلى، التى ترى أن القلوب هى أداة الحياة الدينية، وأنها تفضل حركات الجوارح، بله فرائض السنة، إن من يعرف الحقيقة، فى رأى هذا البعض المغالى من الصوفية، تسقط عنه الشريعة، وإلى أن يظهر كتاب التوحيدى هذا، علينا أن نسلم بقوة إيمانه وتسليمه المطلق لوجه الله، وتمسكه الشديد بمبادئ الدين وفروض السنة، أما الزعم باستهانة التوحيدى بالحج، وهى الفكرة التى شاعت بين بعض متصوفة جيله، فيبعدها عنه أن الرجل حج ماشياً على قدميه عام ٣٥٢هـ[٣].

---

(١) أمراء البيان: لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٣، جـ٢ ص٤٩٨

(٢) شيراز نامه: ط. طهران ١٣٥٠ ص١٠٨ .

(٣) عبد الرزاق محى الدين: أبو حيان التوحيدى، مكتبة الخانجى، مصر ١٩٤٩ ص٢٤٦ .

مؤلفاته:

تميز التوحيدى بثقافته الموسوعية وخصوبة إنتاجه وفعاليته إذ ألف فى أغراض عدة، وكتب فى أكثر من قضية، ولولا أنه أحرق كتبه فى أواخر أيام حياته لكانت الفائدة منها أعم، وقد أورد ياقوت الحموى فى معجمه ثبتاً بأسماء بعضها. ومن هنا كان من المتعذر علينا أن نتحدث عن كل مؤلفاته، إذ لايزال بعضها مخطوطاً وموزعاً على مكتبات العالم، وبعضها ضاع وأتلف، وسنحاول فيما يلى أن نعرض لأهم مؤلفاته المطبوعة .

- **أخلاق الوزيرين، أو «ذم الوزيرين» أو «مثالب الوزيرين»:**

يهاجم التوحيدى فيه الوزيرين أبى الفتح بن العميد والصاحب بن عباد، كاشفاً عن مثالبهما، بعد أن فشل فى تحقيق الحظوة أو الحصول على الشهرة والجاه لديهما .

- **الإشارات الإلهية «والأنفاس الروحانية»:**

وهو فى التصوف، ويتألف من ٥٤ رسالة فى المواعظ والأدعية الصوفية الحارة إلي الله بعد أن يبلغ التوحيدى مرحلة متأخرة من مراحل حياته.

- **الإمتاع والمؤانسة :**

ويعد هذا الكتاب المؤلف من ثلاثة أجزاء من أضخم كتب التوحيدى وأكثرها أهمية ونفعاً، ويزخر بشتى فنون المعرفة من أدب ولغة وفلسفة وأخلاق وتصوف وشريعة وكلام وطبيعة وإلهيات .

وينفرد الكتاب بإيراد وثيقتين مهمتين: «الأولى منهما هى النص المتعلق بمؤلفى إخوان الصفا، والثانية هى المحاورة التى دارت فى بغداد عام ٣٢٦هـ بين العالم النحوى أبى سعيد السيرافى وعالم المنطق متى بن يونس

حول المفاضلة بين النحو العربى والمنطق اليونانى، بما يشير إلى قصة النزاع المتجدد بين النحويين والمناطقة»[١].

- البصائر والذخائر:

وهو كتاب ضخم، استغرق التوحيدى فى تأليفه خمسة عشر عاماً مابين ٣٥٠-٣٦٥هـ، وكشف عن محصلة مطالعة التوحيدى وتجاربه وثقافته الموسوعية وأمانته العلمية. ويشتمل على معارف متنوعة إذ نجد فيه الأدب والتفسير والشعر والنثر، والتاريخ والفكاهة والفلسفة والتصوف .

- رسائل أبى حيان التوحيدى:

وهى تسع رسائل بتحقيق إبراهيم الكيلانى، دار طلاس بدمشق ١٩٨٥ .

والرسائل المنشورة هى: رسالة السقيفة - ورسالة فى علم الكتابة - ورسالة الحياة - ورسالة فى العلوم - ورسالة إلى أبى الفتح بن العميد - ورسالة إلى أبى الوفاء المهندس البوزجانى - ورسالة أخرى إلى الوزير أبي عبد الله العارض وزير صمصام الدولة البويهى- ورسالة إلى القاضى أبى سهل على بن محمد .

وتمثل رسالة السقيفة جانباً من الصراع بين السنة والشيعة فى عصر بنى بويه الذين رفضوا رأى الصحابة فى الشيخين، وفضلوا عليهما علياً .

أما رسالته الثانية فى علم الكتابة فقد كتبها فى أنواع الخطوط العربية وقواعدها وأنواع الأقلام، ومعانى الخط، وذلك من واقع خبراته الطويلة فى مجال الكتابة والوراقة .

---

(١) التوحيدى: الإمتاع والمؤانسة: تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، القاهرة، ١٩٣٩، ١٩٤٤، مقدمة أحمد أمين، الجزء الأول، ١٩٣٩، ص ف وانظر أيضاً القفطى: تاريخ الحكماء ١٣٢٠ هـ ص٥٩ .

وتوضح الرسالة الثالثة رؤيته الفلسفية فى الحياة والموت والمعاش والمعاد.

ويرد التوحيدى فى «رسالة فى العلوم» علي القائلين بأنه ليس للمنطق مدخل فى الفقه، ولاللفلسفة اتصال بالدين، ولاللحكم تأثير فى الأحكام ويهاجم فى هذه الرسالة أدعياء العلم موضحاً الصلة الوثيقة بين الفلسفة والمنطق وعلوم الشرع .

- الصداقة والصديق :

كتبه التوحيدى فى مرحلة متأخرة من حياته تعكس حالة اليأس التى انتهى إليها، وجمع فيه معظم ماكتب عن الصداقة والصديق شعراً ونثراً عند العرب فى الجاهلية والإسلام وعند غيرهم من الشعوب الأخرى كاليونان والفرس ويتميز الكتاب بأسلوبه الشائق الذى يعد من أخص خصائص التوحيدى .

- المقابسات:

يشتمل الكتاب على ١٠٦ مقابسة أو محاورة بين العلماء تدور حول التعاريف الفلسفية والطبيعيات والمنطق والإلهيات وموضوعات أخرى.(١)

ومعنى هذا أن موضوعات الكتاب متنوعة تتناول موضوعات فلسفية صرفة كالخالق والمخلوقات، والتوحيد والتنزيه، والروح، والمادة والعالم العلوى والعالم السفلى، إلى جانب موضوعات أخلاقية ونفسية مثل الصداقة والصديق وفلسفة الحب والعشق، وحقيقة الضحك وأسبابه، وكتمان السر وإفشائه،

---

(١) انظر: ماكس مايرهوف: من الإسكندرية إلى بغداد، بحث مترجم فى كتاب التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية، ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى، مكتبة النهضة القاهرة، ١٩٤٠ - ص٨٩ .

وشرعية الرقى والعزائم، وهناك موضوعات فكرية أخرى متفرقة، صاغها التوحيدى فى قالب أدبى شيق بما يوضح أنه كان واحداً من أولئك «الأدباء الفلاسفة» أو «الفلاسفة الأدباء» فى عصر ازدهار الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى .

- الهوامل والشوامل :

يشتمل الكتاب على أسئلة فى موضوعات أدبية ولغوية وفلسفية وكلامية، وجهها التوحيدى إلى صديقه مسكويه فأجاب هذا عنها .

ومعنى (الهوامل) الإبل السائمة يهملها صاحبها ويتركها ترعى و(الشوامل) الحيوانات التى تضبط الإبل الهوامل فتجمعها، وقد استعار أبو حيان كلمة (الهوامل) لأسئلته المبعثرة التى تنتظر الجواب، واستعمل مسكويه كلمة (الشوامل) فى الإجابات التى أجاب بها، فضبطت هوامل أبى حيان[١].

هذه المؤلفات تبرز التوحيدى عالماً ومفكراً موسوعياً، إذ لم يقف فيها عند الفلسفة والأدب، بل امتد أيضاً إلى الفقه والشريعة والكلام والتصوف والأخلاق والاجتماع، وقد نزع فى معظمها منزعاً عقلانياً واضحاً، والتزم أسلوب المحاورة والمسامرة فجاءت كتبه سهلة المأخذ، بعيدة عن التكلف والتعسف بريئة من اللبس والغموض.[٢]

---

(١) مقدمة أحمد أمين لكتاب «الهوامل والشوامل» القاهرة ١٩٥١ ص «جـ» .

(٢) انظر: التوحيدى: المقابسات، تحقيق ونشر حسن السندوبى، المكتبة التجارية القاهرة، ١٩٢٩م، مقدمة المحقق، ص١٨ .

ونأتى الآن إلى النقطة المركزية فى هذه الدراسة عن كتاب: الهوامل والشوامل، ذلك العمل المشترك بين التوحيدى ومسكويه، الذى نشره الأستاذان أحمد أمين والسيد أحمد صقر فى القاهرة سنة ١٩٥١، فنلحظ أن تاريخ تأليفه يلى (الإمتاع والمؤانسة) ويسبق (المقابسات)، وهو ماأشار إليه التوحيدى فى المقابسة السابعة من كتابه (المقابسات)[١].

ويشتمل كتاب (الهوامل والشوامل) على مائة وخمس وسبعين مسألة طرحها التوحيدى على مسكويه، نلحظ فيها مدى التنوع الشديد فيما بينها فهى تدور حول الإنسانيات والإلهيات والطبيعيات، كما نلحظ مدى التفوق فى بعض أسئلة التوحيدى من حيث التنوع والعمق والدقة على بعض إجابات مسكويه .

وإذا كان القدماء يميلون إلى نسبة هذا الكتاب إلى مسكويه، كما فعل البيهقى فى كتابه (تتمة صوان الحكمة)، إذ أشار إلى هذا العنوان معكوساً (الشوامل والهوامل)[٢]؛ فإن المحدثين، من ناحية أخرى، يغفلون عنوان الكتاب فى مؤلفات التوحيدى ومسكويه معاً[٣] فلم يرد ذكره مثلاً عند كل من السندوبى[٤]، وعبد الرزاق محيى الدين[٥]، وإبراهيم الكيلانى

---

(١) انظر: التوحيدى: المقابسات: م ٧ ص١٤٦، وراجع أيضاً: مجلة تراث الإنسانية مجلد ١ عدد ١٠ ص٧٩٣ .

(٢) انظر: البيهقى: تتمة صوان الحكمة، نشرة محمد شفيع، لاهور ص٢٩) .

(٣) يراجع فى ذلك: بروكلمان (كارل): تاريخ الأدب العربى، نقله إلى العربية الدكتور/ عبد الحليم النجار، دار المعارف بمصر؛ والزركلى: الأعلام ١/٢٠٤ - ٢٠٥ و ٥/١٤٤ - ١٤٥.

(٤) مقدمة المقابسات ص١٨-١٩).

(٥) أبو حيان التوحيدى: ص ١٨٤- ٢٥٦) .

فى رسالته بالفرنسية، وترجمتها العربية، بيروت ١٩٥٧ فصل ٢، ولم يذكر لنا أحد منهم شيئاً عن نسخ من هذا الكتاب. ولكن الكيلانى يشير، بعد ذلك في الطبعة المصرية، إلى كتاب (الهوامل والشوامل)، ويعده من مؤلفات التوحيدى، معتمداً فى ذلك على نص (المقابسات)[١]. وتذبذب بعضهم بين نسبة الكتاب إلى مسكويه أو التوحيدى، كما أشار إلى ذلك مؤخراً بيرجه، إذ يعده، مرة، من مؤلفات التوحيدى، ويعده، مرة أخرى، كتاباً مشتركاً للتوحيدى ومسكويه[٢].

لكن الأمر المؤكد أن كتاب (الهوامل والشوامل) هو كتاب التوحيدى ومسكويه معاً، وأن دور التوحيدى فى تحديد السؤال أكثر بروزاً في تحديد طبيعة إجابة مسكويه، فلولا أسئلة أبى حيان لما كانت أجوبة مسكويه .

وفى الحقيقة فإن كتاب (الهوامل والشوامل): «ليس كتاباً واحداً، بل هو كتابان لمؤلفين كبيرين: أسئلة من أبى حيان التوحيدى سماها (الهوامل) وأجوبة من مسكويه سماها (الشوامل)[٣].

العلاقة بين التوحيدى ومسكويه:

كانت العلاقة بينهما علاقة تحد ومطاولة، وغلب عليها التوتر والمخاشنة. ومن المعلوم أن مسكويه كان يكبر التوحيدى بسنين قلائل، وقد عمر الاثنان طويلاً، وقد مات التوحيدى سنة ٤١٤ هـ، ومات مسكويه سنة ٤٢١ هـ. ويبدو

---

(١) إبراهيم الكيلانى: أبو حيان التوحيدى، القاهرة ١٩٥٧ ص٤٠) .

(2) Marc Berge, Essai sur la personnalite morale et intellectuelle d, Abu Hayyan al-Tawhidi; P. P. 111 - 112.

(٣) مقدمة أحمد أمين لكتاب (الهوامل والشوامل)، القاهرة ١٩٥١ ص: «جـ».

أن أحد أسباب التوتر والصراع بينهما، وتحين التوحيدى الفرص لمهاجمة مسكويه وذمه صراحة هو الغيرة من مسكويه الذى حقق شهرة بالعلم أكبر من شهرة التوحيدى، وحالفه الحظ دائماً، وأغدق الكبراء عليه بسخاء، كما فعل عضد الدولة عندما اختاره ليكون خازن بيت المال وخازن الكتب ومن هنا عرف «بالخازن»، وعلى حد تعبيرنا الحديث وزيراً للمالية ومديراً لمكتبته، وهذا يجعله أغنى، على حين تعددت نواحى التوحيدى وتميز بسعة الأفق، ورغم ذلك فقد فشل فى أن ينال عطايا إبن سعدان، وأبى الوفاء المهندس، وحتى مسكويه نفسه، ولاعجب بعد ذلك إذا وجدناه كثير الشكوى من الزمان والأحوال والناس، وعبر عن ذلك بوضوح فى رسالته الموسومة (فى الصداقة والصديق) ورددهه كثيراً فى (المقابسات)، و(البصائر والذخائر) و(الإشارات الإلهية).

ويبدو أن السبب فى اختيار التوحيدى مساءلة مسكويه، وعنده من هو أعلم منه، كأبى سليمان السجستانى المنطقى، والفيلسوف يحيى ابن عدى، وأبى سعيد السيرافى عالم النحو والمنطق، والعالم على بن عيسى الرمانى وغيرهم ممن تلقى العلم على أيديهم، لم يكن مصادفة بل كان مقصوداً للتندر والاستخفاف به، وإظهار عجزه الفكرى، خاصة بعد أن باء طمع التوحيدى فى علم ومال مسكويه بالفشل، فوصفه بالبخل والغباء .

وقد وافق ابن سينا التوحيدى على ذلك فقد قال فى بعض مسائله: «إنه كان عسير الفهم». وننتهى من ذلك إلى أن مسكويه إذا كان قد برع فى الأخلاق، إذ ألف فيها كتابه «تهذيب الأخلاق»، إلا أن تفكيره قد شابه القصور في باب الرياضة والإلهيات ونحو ذلك. أما التوحيدى فقد تميز بالعقلية الموسوعية، وتعددت نشاطاته الفكرية فهو فيلسوف، ومتكلم، وعالم لغة، ومتصوف .

ويبدو أن ثمة أثراً للجاحظ وراء هذه الطريقة فى طرح الأسئلة إذ كان التوحيدى من أكبر المعجبين به، وقد أشاد ببلاغته وعلمه وسمو أخلاقه، ووصفه بأنه «واحد الدنيا» الذى لاضريب له فى دنيا البلاغة والإنشاء، بدليل أنه قد حذا حذوه، ونهج نهجه فى بعض أعماله، خاصة كتاب (الهوامل والشوامل) الذى يتشابه مع كتاب الجاحظ (التربيع والتدوير).

وإذا كان كتاب (التربيع والتدوير) هو مجموعة من الأسئلة الموجهة من الجاحظ إلى أحمد بن عبد الوهاب بهدف كشف جهله وتعجيزه والاستخفاف به، دون أن يجاب عنها، كما تغلب على أسئلته الفكاهة والاستهزاء، إلا أن كتاب (الهوامل والشوامل) يختلف عن ذلك بجمعه بين الأسئلة وإجاباتها، وابتعاده عن السخرية والفكاهة المرة، واتسامه بالوقار .

ولاشك أن حب الاستطلاع الذى ميز التوحيدى، ورغبته فى البحث والمعرفة، ودهشته لكل شىء، وربطه عملية التفلسف بفعل التساؤل والحوار، يؤدى بنا فى نهاية الأمر إلى أن نطلق عليه إسم «فيلسوف التساؤل» .

لقد تميز التوحيدى بالعقلية الموسوعية التى تسعى إلى الإلمام بكل شىء، ولعل هذا هو الذى دفعه إلى إثارة الكثير من المشكلات الفلسفية بسؤال مسكويه فى كل مايعن له حول صفات الله، والتوحيد والتشبيه، والجبر والاختيار، والموت والحياة والمعاد، والوجود والعدم، والعقل والشريعة.. إلخ، والمشكلات الخلقية والتفسية فيتساءل مثلاً عن العلم والعمل، والسرور والألم، والرؤى والأحلام، والحفظ والنسيان، والسبب فى حب الإنسان الرئاسة والسلطة، ولماذا يتنادى الناس إلى الزهد فى الدنيا مع شدة الحرص عليها، ومالذى يحرك الزنديق والدهرى علي الخير وإيثار الجميل/ وهو يهتم أيضاً بالكثير من المشكلات الطبيعية فنراه يتساءل عن الحكمة من وجود الجبال، ولم صار ماء البحر ملحاً؟ ولم صار البحر فى جانب من الأرض؟، ولماذا لايجيء الثلج في

الصيف؟، ولم كان صوت الرعد إلى آذاننا أبطأ وأبعد من رؤية البرق إلى أبصارنا؟. وهو فى اللغة والتفرقات اللفظية يتساءل عن الفرق بين الصمت والسكوت، وبين العجلة والسرعة، وبين السرور والفرح، ولم كان اسم أخف عند السماع من اسم؟ ولم صارت بلاغة اللسان أعسر من بلاغة القلم؟. وهناك عشرات أخرى من تساؤلات التوحيدى فى أمور تاريخية وجغرافية واجتماعية وفنية وجمالية تدلنا على كثرة اطلاعه، وسعة أفقه، وغزارة معارفه وتنوع معلوماته .

وإذا كانت أسئلة التوحيدى قد شهدت تنوعاً فى موضوعاتها ومجالاتها السابقة، إلا أنها، من ناحية أخرى، تراوحت بين البساطة والعمق، وبين الطول والقصر. فمن أمثلة الأسئلة السهلة البسيطة: لمَ كان القصير أخبث، والطويل أهوج؟، ولم صار بعض الناس إذا سئل عن عمره نقص فى الخبر، وآخر يزيد على عمره؟، ماالسبب فى اشتياق الإنسان إلى مامضى من عمره؟، لم قبح الثناء فى الوجه، وحسن فى المغيب؟. لم اشتدت عداوة ذوى الأرحام والقربى حتى لم يكن لها دواء؟ وهل كان الجوار فى شكل هذه العداوة أم لا؟، ولم صارت غيرة المرأة على الرجل أشد من غيرة الرجل على المرأة؟. ومن أمثلة الأسئلة القصيرة جداً: ماالحكمة فى وجود الجبال؟، وماالدليل على وجود الملائكة؟

وإلى جانب أمثال هذه الأسئلة السهلة والقصيرة، نلتقى بأسئلة أخرى تتميز بالعمق والبعد الفلسفى ومن ذلك: ماسبب الجزع من الموت؟ وماالاسترسال إليه؟ وأى المعنيين أجل؟، لم لم يرجع الإنسان بعد ماشاخ وخرف كهلاً، ثم شابا ثم غلاما ثم طفلاً كما نشأ؟ وعلام يدل هذا النظم؟، ماالسبب فى استحسان الصورة الحسنة؟، ماعلة كثرة غم من كان أعقل، وقلة غم من كان

أجهل في الأفراد والأجناس؟. لم كلما شاب البدن شب الأمل، وهل اشتمل الأمل على مصالح العالم، وإن كان مشتملاً فلم تواصى الناس بقصر الأمل، وقطع الأماني؟، لم اشتد عشق الإنسان لهذا العالم حتى لصق به وآثره وكدح فيه مع مايرى من صروفه ونكباته وزواله بأهله؟، لم صار اليقين إذا حدث وطرأ لايثبت ولايستقر؟ والشك إذا عرض أرسى وربض؟

والمتأمل في المجموعات التي سبقت من الأسئلة يجد أن أغلبها أسئلة فلسفية تتجه إلى محاولة التعرف على أصل كل شئ، وهويته، وحكمته، ولذلك يستخدم فيها أداة الاستفهام «لم»، دون محاولة التساؤل عن كيفية الشئ، أي خصائصه، ومصير هذه الخصائص، وهو مايميز الطابع العام للعلم. بل نجد التوحيدي يتساءل عن «التساؤل» نفسه، دليل ذلك قوله: «لم صارت أبواب البحث عن كل شئ موجود أربعة، وهي: هل، والثاني ما، والثالث أي، والرابع لم؟». [١]

ويذهب إلى أبعد من ذلك فيتساءل، أيضاً، عن طبيعة «المعدوم»، فيقول: «ماالمعدوم؟ وكيف البحث عنه؟ ومافائدة الاختلاف فيه؟ (ولماذا) أطال المتكلمون الكلام في اسمه ومعناه؟ وهل لقولهم محصول؟ فإني مارأيت مسألة لاتمكن من نفسها غيرها» [٢].

إن أسئلة التوحيدي، في هوامله، هي في حقيقتها أسئلة ماهية، لاأسئلة وجود .

---

(١) الهوامل والشوامل: المسألة رقم ١٥٩ ص٣٤١.

(٢) المصدر السابق: مسألة رقم ١٦٠، ص٣٤٣ .

أما إجابات مسكويه، في شوامله، فهى مما تردد في مؤلفاته الأخرى، وهى تفسر كل شئ على أساس نظرية النفوس الثلاثة نباتية أو حيوانية أو ناطقة، أو على أساس الأخلاط والعناصر الأربعة. وقد تنوعت الإجابات بتنوع الأسئلة، فتارة تكوْن طويلة مفصلة، وتارة تكون قصيرة موجزة، وتارة يتصرف في الأسئلة فيثبت بعضها كما وردت في الأصل، أو يترك قسماً منها- يعجز عن الإجابة عليه .

وبعد.. فهذا الكتاب يعتبر وثيقة اجتماعية وعلمية صادقة وهامة تدل على الحياة الاجتماعية، والثقافة السائدة في المجتمع الإسلامى إبّان القرن الرابع الهجرى .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كتاب « الهوامل والشوامل » فى الحقيقة كتابان لمؤلفين كبيرين ، أسئلة من أبى حيان التوحيدى سماها « الهوامل » ، وأجوبة من مسكويه سماها « الشوامل » ، ومعنى « الهوامل » الإبل السائمة يهملها صاحبها ويتركها ترعى . و « الشوامل » الحيوانات التى تضبط الإبل الهوامل فتجمعها ، وقد استعار أبو حيان كلمة الهوامل لأسئلته المبعثرة التى تنتظر الجواب ، واستعمل مسكويه كلمة الشوامل فى الإجابات التى أجاب بها فضبطت هوامل أبى حيان .

وقد رأينا كتاب « الهوامل والشوامل » مهملاً فى ثنايا الكتب فى مكتبة « أياصوفيا » بالآستانة لم يلق إليه أحد باله حتى المستشرقون ، وقد عثر عليه الأستاذ « محمد بن تاويت الطنجى » أثناء بعثته من الجامعة العربية إلى الآستانة لتصوير الكتب القيمة ، فكان هذا الكتاب مما صوره منها .

فلما اطلعت عليه فى القاهرة بعد حضوره أدركت قيمته ، وأنه يكشف عن نواح هامة من النواحى المجهولة من أبى حيان ومسكويه ، فآثرت نشره لإكمال هذا النقص .

ولست أطيل على القارئ فى ترجمة أبى حيان التوحيدى ومسكويه ، فقد ترجم له ترجمة وافية الأستاذ المرحوم القزوينى فى رسالة له وضعها عن أبى حيان بالفارسية . وترجم له أيضاً ترجمة وافية الأستاذ « عبد الرازق محيى الدين » فى كتابه عن أبى حيان . وكتاب روضات الجنات ترجم لمسكويه ، وكذلك الأستاذ

« عبد العزيز عزت » فى رسالته الجامعية عنه ، فلا نذكر هنا إلا بعض ما يدل هذا الكتاب على شخصيتهما .

فأولاً : يدل كتاب « الهوامل » على أن أبا حيان شخصية فلسفية طُلَعَة تستخلص الأسئلة من كل ما يقع أمامها سواء كانت المسائل خلقيــة أو اجتماعية أو لغوية أو اقتصادية أو نفسية . ففى كل ذلك يسأل ، وكثيراً ما تثير المسألة حولها جملة مسائل فيسأل عنها أيضاً ، حتى ليسأل فى دقائق الأمور مثل البيت الخالى من السكان كيف يسرع إليه الخراب أكثر من البيت المسكون وكان المظنون العكس (ص ٢٦٠) .

ثانياً : إن أسلوبه فى أسئلته أسلوب أدبى فنى رائع يمتاز حتى عن أسلوب مسكويه الفلسفى الذى يحوطه الغموض .

وثالثاً : إن أبا حيان كثير الشكوى من الزمان والسكان ، والشكوى من المجتدين قد تثير فى النفس عاطفة الحنو والرحمة ، وقد تثير عاطفة التقزز والاشمئزاز ، وهى فى ذلك كله تختلف باختلاف الشكل وأساليب الاستجداء ، فقد يكون الشكل باعثاً على العطف والرحمة ، وقد يكون باعثاً على النفور ، وكذلك أسلوب الاستجداء فقد يكون أسلوباً رقيقاً يستخرج العطف ، وقد يكون أسلوباً جافاً مشوباً بالإدلال والتعاظم فيثير السخط ويبعث على الحرمان . ويظهر أن أبا حيان التوحيدى كان من القبيل الثانى ، يريد أن يستعلى على المسئول وأن يفهمه أن هذا حق لا إحسان فنفَّر من استجدائه منه . يظهر ذلك فى نفور الصاحب ابن عباد منه ، وحرمان الوزير ابن سعدان له ، وتقريع مسكويه له من الشكوى ، فقد شكا أبو حيان كثيراً فى أكثر ما ألف ، شكا فى الإمتاع والمؤانسة لأبى الوفاء البوزجانى ولابن سعدان ، وشكا فى الصداقة والصديق ، والمقابسات ، والبصائر والذخائر وشكا فى الإشارات الإلهية ، ونقم على الناس كثيراً وعد نفسه غريباً بين المواطنين فى خلقه وعلمه فأحرق كتبه حتى لا ينفعهم بها ؛ وشكا كثيراً لمسكويه

فقرعه مسكويه على شكواه إذ قال له (ص ١ ، ٢) « قرأت مسائلك التى سألتني أجو بتها في رسالتك التى بدأت بها فشكوت فيها الزمان ، واستبطأت بها الإخوان ، فوجدتك تشكو الداء القديم والمرض العقيم ، فانظر — حفظك الله — إلى كثرة الباكين حولك وتأس ، أو إلى الصابرين معك وتسل ، فلعمر أبيك إنما تشكو إلى شاك ، وتبكى على باك ، ففى كل حلق شجى ، وفى كل عين قذى ، وكل أحد يلتمس من أخيه ما لا يجده أبداً عنده ، ولو كان حد الصديق ما رسمه الحكماء حين قالوا : صديقك آخر هو أنت إلا أنه غيرك بالشخص ، فهيهات منه إنى لا أظن الأبلق العَقُوق ، والعنقاء المُغْرِب والكبريت الأحمر أيسرُ مطلباً ، وأقرب وجوداً منه .

و بعد فإنى أرى لك إذا أحببت معايشة الناس ومخالطتهم وآثرت لذة العمر وطيب الحياة أن تسامح أخاك ، وتغالط فيه نفسك ، حتى تغضى له عن كل حق لك ، وترى له عليك ما لا يراه لنفسه ، وأن تأخذ بأدب بشار فإنه نعم الأدب وموعظة النابغة فنعمت الموعظة . ولا تعوّد عشيرك وجليسك استماع شكواك فيأنس به ثم لا يشكيك ، ولا تكثر عليه من العتب فيألفه ثم لا يعتبك .

هذا إن لم يكن عنده لك أكثر مما عندك له ، ولم تهجم منه على صدر مُحْتش وغْراً وقلب ممتلئ دِمناً ، فإنك حينئذ تهيج بلابله ، وتثير ضغائنه ، وتذكره ما تناساه كرماً أو تكرّماً ، وطواه حلماً أو تحلماً ، وهذا إن أنصفك فلم يتسرع إليك ، وصدقك فلم يتكذب عليك ، ومن عرف طبع الزمان وأهله ، وشيمة الدهر و بنيه لم يطمع فى المحال ولم يتعرض للممتنع ، ولم ينتظر الصفو من معدن الكدر ، ولم يطلب النعيم فى دار المحنة . وأنت إذا لم تجد من نفسك وهى أخص الأشياء بك مساعدة لك على رضاك ، ولا من أخلاط بدنك وهى أقرب الأمور إليك موافقة لهواك ، فكيف تلتمسها من غيرك وتطلبها من سواك ؟ استعذ بالله من الشيطان ووساوسه ، ومن دنس الجهل وملابسه ، واستعن بالله يعنك ،

واستكفه يكفك ، ولا قوة إلا به . هذا مبلغ ما رأيت من وعظك وحضرني من نصحك ، وأرجو أن يوافق ما توخيته لك ورجوته فيك من القبول والامتثال ، إن شاء الله » .

رابعاً : يدل الكتاب على أن أبا حيان كان واسع الأفق متعدد النواحي ، وهو في ذلك أيضاً يفضل مسكويه ، إذ كان أبو حيان فيلسوفاً مع الفلاسفة ، ومتكلما مع المتكلمين ، ولغوياً مع اللغويين ، ومتصوفاً مع المتصوفين ونحو ذلك ، يتسع أفقه حتى يشمل البحث في ذات الله وصفاته ، كما ورد في المسألة (١٦) (ص ٥٥) « وعلى ذكر الله تعالى ، بم يحيط العلم من المشار إليه باختلاف الإشارات والعبارات ؟ أهو شيء يلصق بالاعتقاد ؟ أم هو مطلق لفظ الاصطلاح ، أم هو إيماء إلى صفة من الصفات مع الجهل بالموصوف ؟ أم هو غير منسوب إلى شيء بعرفان ؟ فإن كان منعوتاً بنعت فقد حصره الناعت بالنعت . و إن كان غير منعوت فقد استباحه الجهل ، وزاحم المعدوم . ولا بد من الإثبات إذا استحال النفي ، و إذا وقف الإثبات والنفي على المثبت النافي فقد سبق إذن كل إثبات ونفي . فإن كان سابقاً كلّ هذه الألفاظ وجميع هذه الأغراض فما نصيب العارف ؟ وما بغية ما ظفر به الموحِّد ؟ .

هيهات هيهات ! اشتد اللغط ، وكثر الغلط ، ورجع كل إلى الشطط ، وفات اللهُ الفهم والفاهم ، والوهم والواهم ، وبقي مع الخلق علم مختلَف فيه ، وجهلٌ اصطلح عليه ، وأمر قد تُبرِّم به ، ونهي قد ضُجِر منه ، وحاجة فاضحة ، وحجة داحضة ، وقول مُزوَّق ، ولفظ منمق ، وعاجل معشّق ، وآجل معوّق ، وظاهر مُلَفَّق ، وباطن ممزَّق . إلى الله الشكوى من غلبات الهوى ، وسطوات البلوى ، إنه رحيم ودود » .

وكان مسكويه أضيق منه أفقاً ، كما كان أسوأ منه تعبيراً ، فليس له مجال كبير ، يجول فيه ويصول إلا في الفلسفة ، وحتى في الفلسفة لا يحسن الإلهيات

ولا ما وراء المادة ونحو ذلك ، و إنما يحسن الأخلاق إذ ألف فيها كتابه «تهذيب الأخلاق » والتدبير المنزلى ، والناحية العملية فى فلسفة أرسطو لا فى غيرها ، ويدل على ذلك قصوره فيما عداها .

و يظهر أن سن أبى حيان ومسكويه متقارب إلا أن مسكويه يكبره قليلا ، ولكن كانت شهرة مسكويه بالعلم أكبر من شهرة أبى حيان . وكان أغنى لأنه كان خازن بيت المال ، وخازن الكتب لعضد الدولة وعلى حد تعبيرنا الحديث وزيراً للمالية ومديراً لمكتبته ، وهذا يدر عليه كثيراً ، فيظهر أن طمع أبى حيان فى علمه وماله قد باء بالفشل فوصفه بالبخل والغباء ، إذ قال فيه فى كتاب الإمتاع والمؤانسة ١ / ٣٥ ، ٣٦ « وأما مسكويه ، ففقير بين أغنياء ، وعيى بين أبيناء ، لأنه شاذ ، وأنا أعطيته فى هذه الأيام (صفو الشرح لإيساغوجى) وقاطيغورياس من تصنيف صديقنا بالرّى . قال : ومن هو ؟ قلت : أبو القاسم الكاتب غلام أبى الحسن العامرى ، وصحبه معى ، وهو الآن لائذ بابن الخمار ، وربما شاهد أبا سليمان ، وليس له فراغ ، ولكنه محس فى هذا الوقت الحسرة التى لحقته فيما فاته من قبل . فقال : يا عجباً لرجل صحب ابن العميد أبا الفضل ، ورأى من كان عنده ، وهذا حظه ! قلت : قد كان هذا ، ولكنه كان مشغولا بطلب الكيمياء مع أبى الطيب الكيميائى الرّازى ، مملوك الهمة فى طلبه ، والحرص على إصابته ، مفتوناً بكتب أبى زكريا ، وجابر بن حيان ، ومع هذا كان إليه خدمة صاحبه فى خزانة كتبه ، هذا مع تقطيع الوقت فى حاجاته الضرورية والشهوية ، والعمر قصير ، والساعات طائرة ، والحركات دائمة ، والفرص بروق تأتلق ، والأوطار فى عرضها تجتمع وتفترق ، والنفوس على فوائتها تذوب وتحترق ، ولقد قطن العامرى الرّى خمس سنين جمّة ، ودرس وأملى ، وصنف وروى ، فما أخذ مسكويه عنه كلمة واحدة ، ولا وعى مسألة ، حتى كأنه بينه و بينه سد ، ولقد تجرع على هذا التوانى الصاب والعلقم ، ومضغ بفمه حنظل الندامة فى نفسه ، وسمع بأذنه قوارع الملامة

من أصدقائه حين لم ينفع ذلك كله . و بعد فهو ذكى حسن الشعر ، نقى اللفظ ، و إن بقى بقيساه يتوسط هـذا الحديث ، وما أرى ذلك مع كلفه بالـكيمياء ، و إنفاق زمانه ، وكد بدنه وقلبه فى خدمة السلطان واحتراقه فى البخل بالدانق والقيراط والـكِسرة والخِرقة ؛ نعوذ بالله من مدح الجود باللسان ، و إيثار الشح بالفعل ، وتمجيد الـكرم بالقول ومفارقته بالعمل ؛ وهذا هو الشقاء المصبوب على هامة من بُلى به ، والبلاء المعصوب بناصية من غلب عليه » .

ولا ندرى كيف وصفه بالذكاء والغباء معاً ، إلا أن يكون يريد بوصفه بالذكاء فى بعض مواضع ، وفى بعض فروع من العلم كالأخلاق والطب ، وغبائه فى بعض المواضع كالإلهيات والمنطق ، وقد وافقه على ذلك ابن سينا فقد قال ابن سينا فى بعض كتبه : إنه ألقى إليه جوزة كانت فى يده وقال : ابن لى مساحة هذه بالشّعيرات ، فألقى إليه ابن مسكويه أوراقاً وقال له : أصلح بهذه أخلاقك حتى أجيبك إلى بعض ما تريد . ونستخلص من هذه القصة تقصير مسكويه فى باب الرياضة ، ومهارته فى الأخلاق .

وقد قال ابن سينا أيضاً فى بعض مسائله : إن هذه المسألة حاضرت بها أبا على مسكويه فاستعادها كرات ، وكان عسر الفهم ، وتركته ولم يفهمها على الوجه الصحيح .

* * *

وقد عمر الإثنان طويلا ، فقد مات أبو حيان سنة ٤١٤ هـ عن نيف وتسعين سنة كما ذكر القزوينى . وقال فى روضات الجنات إن أبا على مسكويه عاش طويلا حتى سئم الحياة ، ولم يعد يقدر على الحركة ، وفى بعض أشعاره إشارة إلى ذلك وقد مات سنة ٤٢١ هـ فإن كان مسكويه يكبر أبا حيان فإنما يكبره بسنين قلائل ، ولـكن كان له من الجاه والغنى ما لفت إليه الأنظار أكثر من أبى حيان .

ويظهر أيضاً أنه لما لم يجد بغيته العلمية والمالية عند مسكويه اتجه إلى أبى سليمان المنطقى الذى يشاركه فى البؤس ، ولكن يفوقه فى العلم ، وكان اتصاله هذا بعد اتصاله بمسكويه بدليل ما جاء فى كتاب المقابسات من أنه سأل أبا سليمان المنطقى عن مسألة فأجابه عنها إجابة غير التى ورد ذكرها فى كتاب « الهوامل والشوامل » ، وقد أعجب بعقلية أبى سليمان وعلمه أكثر جداً مما أعجبه مسكويه ، وقد لازمه طويلا ووصفه بالعلم والذكاء فى الامتناع والمؤانسة إذ يقول : ١ / ٣٣ « أما شيخنا أبو سليمان فإنه أدقهم نظراً ، وأقعرهم غوصاً ، وأصفاهم فكراً وأظفرهم بالدر وأوقفهم على الغرر ، مع تقطع فى العبارة ، ولكنة ناشئة من العجمة ، وقلة نظر فى الكتب ، وفرط استبداد بالخاطر ، وحسن استنباط للعويص ، وجرأة على تفسير الرمز ، وبخل بما عنده من هذا الكنز » .

واستفاد منه كثيراً . وكان أبو حيان وسيطاً له عند الوزير بن سعدان ، إذ منحه مائة دينار يقضى بها دينه فى أجرة بيته كما ذكر فى الإمتاع ١/٣١ .

والمقابسات أغلبها مما استفاده أبو حيان من أبى سليمان فى مجالسه .

ويظهر أن أبا حيان قد وجه إلى مسكويه أسئلته كلها دفعة واحدة ، فأجاب مسكويه عنها إجابات متفرقة عن كل سؤال جواب ، وأن أبا حيان عنون كل سؤال بمسألة خلقية أو لغوية أو زجرية أو اختيارية ، ويعنى بالاختيارية ما كانت المسألة فيها من اختيار الشخص أن يفعله أو لا يفعله ، كأن يكون غنياً فيبخل أو يكرم ، وأن يكون غضوباً فيغضب أو يحلم ، ويعنى بالزجرية المسائل التى يسأل فيها لزجر المرتكب عن ارتكابها ، وهكذا . وأن مسكويه قد تصرف فى الأسئلة ، فأحياناً لا يثبتها كما وردت فى الأصل ، بل أحيانا يشير إلى قسم منها ويترك القسم الآخر ، كما فى المسألة الرابعة إذ يقول (ص ٢٦) « ثم اتبعت المسألة من تنقص الإنسان وذمه وتوبيخه ، ما أستغنى عن إثباته » .

وكما فى المسألة (٣٥) ص ١٠٨ « وحكاية طويلة فى إثر هذه المسألة عن شيخ

فاضل مقرظ وجوابات له » وفى المسألة (٦٨) ص ١٨٠ « ثم حكيت حكايات ليس لها غناء فى المسألة فلنشتغل بالجواب » .

وفى المسألة (٨٣) ص ٢٠١ « ثم حكيت الحكاية عن ابن إسماعيل فى قصة الزعفرانى » .

وفى المسألة (٨٦) ص ٢٠٨ « إلى ما يتصل به من كلامك مما لم أحكه ، إذ كانت المسألة هى فى قدر ما خرج من حكايتى » .

بل أحياناً يحذف من السؤال مالا يستحسنه أو ما يعجز عن الإجابة عليه كما فى ص ١٨٢ .

***

ويظهر أننا إذا أردنا أن نؤرخ كتب أبى حيان المتداولة بيننا وجدنا أولها الهوامل ، ولا ندرى موضع كتاب الإشارات الإلهية من هذه الكتب إلا أننا نستنتج أنه ألفه متأخرا لنضج تعبيره ومعانيه ، وتعمقه فى التصوف . ثم الإمتاع ، ثم الصداقة والصديق ، وفى غضون ذلك ألف البصائر والذخائر لأنه ذكر فى مقدمته أنه بدأ به سنة ٣٧٥ وأتمه بعد خمسة عشر عاماً . ثم المقابسات لأنه ذكر الهوامل والشوامل فى المقابسات ، وذكر أنه ألف لابن سعدان كتاب الإمتاع والمؤانسة سنة ٣٧٤ وألف الصداقة والصديق لابن سعدان أيام كان وزيراً وكانت مدة وزارته من سنة ٣٧٣ إلى سنة ٣٧٥ هـ وأياً ما كان فالكتاب عظيم القيمة ، إذ يدل على نوع المشاكل التى كانت تشغل بال المفكرين فى القرن الرابع الهجرى فى العراق ، كما تدل فى كثير من الأحيان على الحالة الاجتماعية التى كان يحياها الناس .

وكثير من الأسئلة والأجوبة كان يحتاج إلى تعليقات طويلة ، أو إلى أجوبة غير التى أجيب بها طبقاً لعلم النفس وعلم الاجتماع كما وصلا إليه اليوم ، ولكن

أينا أن نغرق هذا الكتاب بالتعليقات ، وتركنا الحرية لكل قارئ في التعليق عليه حسبما يرى ، وعلى قدر علمه بهما .

ومن بديع أسئلته سؤاله رقم ١٥٣ عن المسألة الواحدة يكون فيها حكمان من فقيهين : أحدهما يحلها والآخر يحرمها . ومن بديع الجواب أن المسألة الواحدة قد يختلف حكمها باختلاف الزمان والمكان والعادة ومصالح الناس . فقد تكون المسألة حلالا في زمان ومكان ، حراما في غيرها ؛ كالذى روى أن أبا حنيفة أفتى بأن من غصب ثوبا صبغه بالصبغ الأسود كان قد قلل قيمته ، بينما أفتى أبو يوسف بأن من صبغه صبغاً أسود فقد زاد من قيمته . والسبب في ذلك أن أبا حنيفة أفتى في زمان لم يتخذ فيه العباسيون السواد شعاراً لهم . وأفتى أبو يوسف في زمان اتخذ فيه السواد شعاراً .

ومن بديع الجواب أيضاً أن الحكم يدور مع المصلحة ، فقد تكون المصلحة موجبة للحل أحياناً ، وقد تكون موجبة للحرمة أحياناً أخرى . ومن الأقوال الشائعة أن الضرورات تبيح المحظورات .

ويفهم من هذا أن الاجتهاد جائز ولو أدى إلى مخالفة النص .

ومن بديع الجواب ثالثاً ما قرره مسكويه من أن الاجتهاد قد يستحسن لذاته ، كضرب الكرة بالصولجان ، لا يضر فيه أن يخطئ الكرة ولا ينفع أن يصيبها . وإن كان الحكم قد أمر بالضرب والإصابة لأن غرضه من أمره الرياضة بالحركة . وكذلك الحكيم إذا دفن في برية دفيناً وأمر الناس بطلبه والبحث عنه ، وغرضه في ذلك جد الباحثين وتنشيطهم ليعرف مقادير اجتهادهم ، فقد حصل المقصود وجدوا الدفين فيما بعد أم لم يجدوه . وكما يطلب من المتعلم حل نظريات أو تمرينات هندسية أو مسائل عويصة في التربية ، فإن الغرض يحدث من حلها ؛ لأن الغرض هو تمرين الذهن في حل هذه المشكلات وقد حصل .

وهو نظر جديد — فيما نعلم — فى قيمة الإجتهاد .

وسؤال آخر وهو رقم ١٤٧ يدل على أن أبا حيان قد يُسْأَلُ من طالب آخر ، فيحيل السؤال على مسكويه بعد أن يجيب هو بنفسه ، ليرى هل يجيب مسكويه نفس الإجابة ، أو يجيب إجابة أخرى فيتعدد الجواب ، وفى ذلك مصلحة . وقد سأل أبا حيان سائل : هل تخرج الشريعة عن مقتضى العقل ؟ فإن لم تخرج فكيف يعلل ذبح الذبائح ، وإيجاب الدية على العاقلة ؟ وقد أجاب مسكويه بأن من المحال أن تخرج الشريعة عن مقتضى العقل ، لأنها وضعت لمصلحة الناس ، فإن وجد ما يخالف العقل فذلك شيء ظاهرى فقط ، وإذا بحث تبيّن أنه لا يخالف العقل ، نعم قد يخالف المألوف وما اعتاده الناس ، ولكن لا يخالف العقل ، فذبح الذبائح قد يكون فيه إضعاف لها ولكن فيه تقوية للإنسان وصحة له ، ووجوب الدية على العاقلة يزيد فى الرباط بين القبيلة ، ويجعل كل إنسان مسؤولا عما يعمله أحد أفراد قبيلته ، وليس ذلك مخالفا للعقل البشرى بتاتاً .

وقد دلنا السؤال والجواب على أن فى عصر أبى حيان ومسكويه جماعة من المانوية يثيرون الشكوك بين العامة ليعدلوا بهم عن الدين الصحيح . وقد وقف أبو حيان ومسكويه فى وجوههم وأمثالهم .

***

وقد أجاب مسكويه فى هذا الكتاب عن أسئلة كانت الإجابات عليها متفقة مع ما عرف فى زمانه . ولكن العلم تقدم ، وأصبح ما كان مجهولا له معلوما عندنا ، فقد أجاب إجابات من علم النفس تكون أحيانا غامضة ، ولكن تقدم هذا العلم تقدما كبيرا جعل من الممكن الإجابة عنها إجابات خيراً مما أجاب ؛ ولكن لم نرد أن نغرق الكتاب بمثل هذا . ونظير ذلك ما أجاب عنه فى المسائل الاقتصادية والاجتماعية والطبيعية وغيرها . فالعلم اليوم خير من حال العلم فى زمانه . خذ لذلك مثلا السؤال الذى سأله أبو حيان عن أن السحاب يبرق و يرعد ، فترى

البرق قبل أن نسمع الرعد (ص ٣٦٥) وهى ملاحظة صحيحة ، وقد أجاب مسكويه إجابة غلطا ، وهى ظنه أن الهواء يستحيل إلى نور فنراه بمجرد ظهوره ، وأما الرعد فينتقل حسب الموجات كأمواج البحر . مع أننا نعلم اليوم أن كلا من الرعد والبرق ينتقل إلينا بواسطة موجات ، ولكن بعض الموجات أقصر من بعض ، كما نلاحظ فى موجات الإذاعة ، فبعضها قصير و بعضها طويل ، و بعضها سريع و بعضها أسرع ، فكل من الرعد والبرق ينتقل إلينا عن طريق موجات ، ولكن أمواج النور أسرع من موجات الصوت ، ولذلك يقولون إن الشمس تطلع ولكن لا يصل إلينا ضوءها إلا بعد ثمان دقائق من طلوعها ، ودلت التجربة أن بعض النجوم بعيد عنا جدا حتى لا يصل إلينا ضوءه إلا بعد مائة عام . وكانت هذه الظاهرة إحدى الظواهر على مقياس البعد بيننا و بين نجم معين ، فنحسب كم من الزمن وصل إلينا الضوء ، وما سرعة الضوء ، وعلى هاتين المقدمتين نبنى حسابنا .

وكذلك الشأن فيما أجاب عنه فى المسائل الاقتصادية والاجتماعية والنفسية ، فقد كانت دائرة العلم فى زمنه ضيقة ، فكانت تتسع كل يوم بالاستكشافات الجديدة ، وخصوصا فى القرون الأخيرة ، حتى أصبحت إجابات مسكويه إجابات تستخرج الضحك أحيانا ، وقد كان من الممكن أن نقف عند كل إجابة لنبين ما يقوله العلم الحديث فيها ولكن منعت من ذلك موانع : أحدها أننا لم نرد أن نغرق الكتاب الأصلى بإجاباتنا ، وثانيها أننا لا نستطيع أن ندعى العلم الواسع بالنفس والاقتصاد والطبيعة والكيمياء كما فعل مسكويه ، فإن هذه العلوم اتسعت حتى لا يستطيع أن ينوء بها إلا العصبة أولو القوة . وثالثها أننا لا نريد أن نقع فى الخطأ الذى وقع فيه مسكويه ، فسيقرأ الكتاب من بعدنا ، وسيكون العلم قد تقدم أكثر مما عندنا ، فيضحك من إجابتنا أحيانا كما نضحك من إجابة مسكويه ، ولهذا نحترس حيث أهمل ، ونتقيد حيث أطلق .

ونلاحظ أن فى المسألة رقم ١٧٥ سقطا إذ نرى فى آخر الإجابة عليها كلاما لا يتصل بموضوع السؤال . وتبلغ المسائل الساقطة نحو خمس مسائل ، فقد جاء فى الصفحة الأولى التى فيها عنوان الكتاب « كتاب الهوامل والشوامل ويشتمل على مائة وثمانين مسألة ، الهوامل من سؤال أبى حيان على بن محمد الصوفى ، والشوامل ووضع الكتاب والأجوبة من تأليف أبى على أحمد بن يعقوب بن مسكويه » فإذا كنا قد بلينا بفقد هذه المسائل وأجوبتها فلله الحمد على ظفرنا بما عداها . ومماهو جدير بالذكر أن الصفحة الأولى قد كتبت عليها عدة تملكات كثيرة بعضها غير مؤرخ و بعضها مؤرخ ، ولكن لم يتضح تاريخه ، والذى يعنينا منها جميعا التملك الأول لأهميته التاريخية ونصه « ملكه من كرم الله تعالى محمد بن إبراهيم . . . لطف الله به وعفى عنه سنة ٤٤٠ » وهو يدلنا على قدم هذه النسخة .

فهذا الكتاب ، وكتاب المقابسات ، وكتاب الإمتاع والمؤانسة صورة صادقة للحياة الاجتماعية فى ذلك العصر من بخل غنىّ ، وفقر عالم ، وغنى جهول ، وسلطان وزير ، وقتله من يد أمير ، وهكذا .

هذا إلى الطرف النادرة ، والنوادر المستملحة ، والقصص الممتع ، والرأى الحصيف ، ويشترك فى هذا الأخير أيضاً كتاب « البصائر والذخائر » الذى سنتولى نشره قريباً إن شاء الله ، بالاشتراك مع الأستاذ « السيد أحمد صقر » .

* * *

والنسخة التى بأيدينا ، والتى نشرنا عنها هذا الكتاب هى فيما نعلم النسخة الوحيدة فى العالم حتى لم يرد ذكرها فى كتاب العلامة الفاحص (بروكلمان) ولم يرو لنا فى كتابه القيم الواسع عن نسخ من هذا الكتاب ، فإذا وقع فيه بعض الأخطاء

وبعض الغموض فعذرنا أننا لم نعلم عن نسخة أخرى في مكاتب العالم يصح أن نرجع إليها ، وأن نصحح ما ورد من الأخطاء في هـذه النسخة .

* * *

وقد شاركني في إخراج هـذا الكتاب الأستاذ « السيد أحمد صقر » بل كان نصيبه من تصحيح الكتاب والتعليق عليـه أكثر مما لي . فله جزيل الشكر على ما قام به .

وإنا نشكر كل الشكر من دلنا على خطأ أخطأناه ، أو زلة زللناها ، والله الموفق للصواب .

القاهرة في يوم الاثنين { ٢٢ ربيع الأول سنة ١٣٧٠ هـ / ١ ينـاير سـنة ١٩٥١ م } أحمد أمين